محمود السمرة في سيرته الذاتية «ايقاع المدى»:

رصد حميمي لحياة غنية بالمعرفة والمحبة ومواجهة التحديات عبر ثمانين عاما..!

عمان ـ «القدس العربي»
ـ من يحيى القيسي:

السيرة الذاتية للناقد والأكاديمي المعروف أ.د. محمود السمرة صدرت أخيرا بعنوان «ايقاع المدى» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في عمان وبيروت، لتكشف عن خفايا من شخصية هذا المثقف والباحث الأردني الغنية بأصوله الفلسطينية، وعمقه العربي، وانفتاحه على العالم، اذ تتيح المجال للقارىء للتعرف عن قرب على ما شكل هذه الشخصية وصقل معارفها وبوأها مناصب أكاديمية وثقافية رفيعة، وحبا واحتراما في قلوب تلاميذه ومن عرفه عن قرب، وقد أعجبت السمرة مقولة ماركيز ليصدر بها كتابه «الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وانما هي ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه»، ولهذا تبدو صفحات كتابه منسجمة مع هذه العبارات، فهو يقوم على استعادة ذكرياته منذ طفولته في قرية «الطنطورة» في فلسطين، مرورا بدراسته في حيفا ثم القاهرة ولندن وحتى عمله في الكويت والأردن، ولكنه لا ينتقل في كل مرة في سرده بشكل خطي، ولا يتقيد في شكل فني محدد، ولا في كتابة كل موضوع بانفصال، اذ سرعان ما يقوده تذكره الى الانتقال زمنيا أو مكانيا بشكل سلس حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع أو اجتهاده الخاص، والكتاب بمجمله يشكل وثيقة اجتماعية وثقافية وتاريخية ليس عن السمرة فحسب بل عن الأماكن التي زارها أو عمل فيها مثل وزارة الثقافة الأردنية ومجلة العربي الكويتية... ومن الواضح أن الرجل يملك الكثير ليقوله أو يتذكره، ولكنه كان انتقائيا في بعض الأحيان ليضيء جانبا دون غيره، وليقول أشياء ويغيب أشياء أخرى، فثمانين عاما لرجل في مثل تجربته لا بد تمتلئ بالكثير من الأحداث الهادئة أو العاصفة، والمواقف الصعبة والسهلة، وان كان أشار الى كثير منها في كتابه.

أول ما انطبع في ذهني وأنا أكمل قراءة هذه المذكرات تلك العاطفة التي ما زالت متوهجة في قلب الرجل لزوجته رغم مرور أكثر من خمسين عاما على هذا الزواج، وهو يورد رسائله اليها، وشوقه العارم، أيام كان يدرس في لندن وهي تعمل في الكويت أو تعيش في رام الله، وكأنه ما يزال يحمل الوهج نفسه الذي كتب فيه، ولعل في ذلك درسا حقيقيا عن مدى ما يمكن أن يصنعه الحب والوفاء في زمن صارت فيه هذه الكلمات تظهر غير ما هي عليه، وصارت نادرة يعض عليها البعض بالنواجذ، أما في خلاصة تجاربه الحياتية من الحكم والوصايا فتلك أيضا كلمات مكثفة اختزلت كل ما يريد قوله بعيدا عن الوعظ والارشاد، اذ جاءت عفوية ومن قلب صادق.

يقول السمرة ملخصا هذه التجربة الطويلة «علمتني الحياة سر السعادة التي قد يبحث الانسان عنها طيلة حياته فلا يجدها، وقد يصيبه الوهم مرة بأن أهم أسبابها الثراء ومرة بأنه المنصب الرسمي أو المركز الاجتماعي، فلا يجدها في أي منها، ولكني بعد هذه الرحلة الطويلة الحافلة على يقين بأن القلوب السعيدة هي القلوب العامرة بالمحبة «ص,200».

أول الدروس في «الطنطورة»

يبدأ السمرة سيرته من ولادته في «الطنطورة» نحو منتصف العشرينات من القرن الماضي، والطنطورة احتلها الاسرائيليون وطمسوها بعد مذبحة لأبنائها، ويتذكر السمرة شاطئها الساحر على البحر الأبيض المتوسط وسمكها الشهير، وفيها درس الابتدائية، وتعلم السباحة، وكيف انه كاد أن يغرق مرتين، وهذا ما سبب له «فوبيا» من الأماكن المغلقة فيما بعد، ويروي تفاصيل الأعراس والنقوط والشباب الذين كانوا ينتظرون الاعلان عن بكارة العروس بشاشة ملطخة بالدم «ولما كبرت أخذت أعجب أشد العجب من هذه الممارسة، ولا شك أن هذا الذي كان يجري يدل على سذاجة متناهية» ص 22، ويروي أيضا تفاصيل مدرسة القرية التي كانت تضم أربعة صفوف، ومعلمه «فرج» خريج دار المعلمين في القدس، وأنه كان لا بد أن يذهب الى حيفا لاكمال دراسته بعد الصف الرابع، وقد وافق والده داود الذي يعمل في صيد السمك الى أن يدرس في حيفا بصعوبة نتيجة الوضع المالي للأسرة «وأخيرا وافق والدي على أن أذهب للدراسة في حيفا شريطة أن يكون ترتيبي الأول في كل فصل، وفي كل سنة، وهذا يعني أنني ان كنت الثاني فانني لا أصلح لأن أتعلم لأنني فاشل، هكذا كان يرى الأمور رحمه الله، وقد بقي سيف ديموقليطس هذا مشرعا ومسلطا على رقبتي طوال سني دراستي، ولكني لم أعطه الفرصة لتدميري، وان كان دوما يمثل لي تهديدا مرعبا طاردني طوال سني دراستي حتى الدكتوراه، ولم يستطع أن ينال مني، وبهذا أثبت لوالدي أنني أصلح للدراسة، أصبحت عندي عقدة نفسية، لكنها عقدة مفيدة..» ص 24.

في الفصل الذي يليه يخصص السمرة الحديث لسنوات دراسته في حيفا ثم انتقاله في بعثة الى الكلية العربية في القدس، ويشير في سياق ذلك الى الأحداث التاريخية الحافلة في فلسطين وأثرها على الحياة اليومية، ولا سيما ثورة الشهيد عزالدين القسام 1935، والاضراب الذي عم فلسطين عام 1936، وهو هنا يسوق العام في ظل الخاص، ومن الواضح للقارىء أن السنوات الست التي قضاها السمرة طالبا في حيفا كانت صعبة عليه لا للمواد التي يدرسها من أجل أن ينال المرتبة الأولى فحسب بل للظروف الحياتية بعيدا عن أهله، أما الكلية العربية التي التحق فيها عام 1941 فهو يقول عنها انها معهد فريد من نوعه وفي مستوى التدريس فيه «وأنا مطمئن الى أن ما حصلته من المعارف فيها كان الأساس المكين لكل معرفة تالية، وهذا يصدق علينا جميعا طلبة الكلية..» ص 34.

وكان الأساتذة من خريجي الجامعات البريطانية وبينهم انكليز، وكان التدريس على غرار المدارس الانكليزية العريقة كما يروي، وقد درس فيها اللغات اللاتينية والانكليزية واليونانية اضافة بالطبع للمواد الأخرى من فلسفة وأدب وتاريخ وغيرها، وهو يصف القدس وصف عاشق لها، كما يروي كيف تعرف على الشاعر عرار هناك «.. وكان من زملائي من شرق الأردن ناصر الدين الأسد وذوقان الهنداوي ونوري شفيق، ومن ناصر ولأول مرة أتعرف على مصطفى وهبي التل (عرار) شاعر الأردن، وأسمع منه شعرا أعجبني ,ويوما قال لي ناصر «ان عرارا هنا في القدس فلنذهب لزيارته في الفندق» وذهبنا وكان لقاء قصيرا..وقد ابتدأ من هنا اهتمامي بعرار فحققت ديوانه وكتبت عنه، ووجهت أحد طلبتي الى تحقيق ديوانه وكتابة رسالته للماجستير..» ص 40، وفي رحلته الى قريته عبر حيفا بالباص شاهد لأول مرة الفتاة التي هفا لها قلبه، وأصبحت فيما بعد زوجته وهي «سهام اليحيى» ابنة قريته ووالدها كان محاميا مشهورا، وكانت هي خريجة دار المعلمات في رام الله، وتحتل علاقته بهذه المرأة جزءا كبيرا من كتابه، اذ انها كما يظهر لنا قد شكلت السند العاطفي القوي للرجل منذ بداية انطلاقته ودراسته لا سيما في لندن الى اليوم، وعلى عكس ما بدت علاقة زميل آخر له هو الناقد المرحوم د. احسان عباس مثلا مع زوجته في سيرته «غربة الراعي» والتهميش الذي طالها فان السمرة هنا يعلي من شأن المرأة زوجة وحبيبة ورفيقة درب شاركته في السرّاء والضراء، وليس المقام هنا بالطبع مقارنة السيرتين وسبب الاختلاف في الطرحين لكن هذه المسألة استوقفتني في سياق عرض التجربة.

سنوات حافلة في القاهرة والكويت ولندن

مرحلة القاهرة جاءت عبر ايفاد السمرة للدراسة في جامعتها عام 1947، وكان قد سبقه اليها صديقاه محمود الغول واحسان عباس، وقد التحق بقسم اللغة العربية فيها، وسرعان ما حدثت نكبة عام 1948 واحتلت الطنطورة وجرت فيها مذبحة مريعة قتل فيها الكثير من معارفه وأقربائه، وأصبحت عائلته لاجئة في طولكرم، وعانى مثل الكثير من الطلبة الفلسطينيين حينها من آثار النكبة في الغربة، ويتذكر بعض أساتذته في الجامعة مثل شوقي ضيف، وأمين الخولي وأحمد أمين، ويروي السمرة رفقته لاحسان عباس وكيف كان الرجل كريما يؤثر الطلبة المحتاجين على نفسه رغم فقره ووجود عائلته معه. وفي الفصل الرابع من السيرة يخصص السمرة الحديث عن «مخاض الخمسينات» حيث تجربته في العمل في الكويت، ومن ثم الدراسة في لندن، ويقول في ذكرياته عن تلك الفترة أي في عام 1950 واصفا الكويت «...البيوت متواضعة، والشارع الوحيد المسفلت فيها كان شارع الشيخ فهد الممتد من بوابة الجهرة حتى الصفاة،وهي وسط البلد....ص 63، وكان الماء ينقل بالسفن من البصرة الى الكويت ويدور الباعة به على الدور يبيعون وينادون: شط..شط أي ماء من شط العرب...ولكن لم يلبث أن تغير كل شيء بعد سنوات قصيرة» ص 64.

وينتقل الرجل في وصفه للكويت التي قضى فيها الأعوام من (1950 ـ 1956 ثم 1958 ـ 1964) الى تطورها فيما بعد والى غزو صدام لها وتشريده لأهلها، والى الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون فيها لمدة أربعين عاما قبل أن يفرقهم الغزو وتبعاته، أما القادمون الجدد منهم الى عمان فيقول السمرة عنهم «والشيء المؤلم أن هؤلاء القادمين الجدد نمت في نفوس بعضهم كراهية للفلسطينيين الأردنيين المقيمين أصلا في الأردن، فتصوروا أن هؤلاء الفلسطينيين فرحون لما حل بهم وما أبعد هذا عن الواقع...كما أن بعض سكان عمان من الفلسطينيين أصلا أصيبوا بنفس الداء من الغيرة والحسد أو القلق من أن يشاركهم فلسطينيو الكويت في قوتهم ورزقهم، وكم من المؤلم أن تكون نتائج حرب الخليج الأولى سببا للتنافر بين الأخوة بدل التلاحم والاتفاق في وجه العدو المشترك الذي يهددهم جميعا..» ص 67.

عمل السمرة معلما في الكويت أول الأمر، وعاد الى الضفة وتزوج ممن أحب عام 1952واصطحبها معه الى الكويت حيث عملت في التدريس أيضا، وجاءته فرصة اكمال دراسته في لندن عبر بعثة من المركز الثقافي البريطاني، وسافر مع زوجته عام 1956 تاركا طفليه رائد ومي عند أهله في طولكرم، وقد سافر الى لندن بحرا من بيروت الى ايطاليا مرورا بالاسكندرية ثم عبر القطار الى باريس مرورا بالنمسا

وسويسرا حتى وصلا لندن، و هو يروي ذكرياته بالتفصيل عن هذه الرحلة وجماليات المدن التي مر بها، وفي لندن (التي كانت رؤية أحد العرب فيها تعد حدثا ص 79) سجل في جامعة soas الشهيرة في موضوع «أثر الحضارة الغربية والدراسات التبشيرية في الفكر الاسلامي في بلاد الشام من 1860 ـ 1920» وهو موضوع صعب ومهم كما يقول، وقد اضطرت زوجته للعودة الى فلسطين بسبب نشوب حرب السويس وخشية أن تفقد طفليها، ومن هنا ابتدأت نار العاطفة المشبوبة تؤثر في السمرة ويورد الكثير من الرسائل التي كان قد أرسلها اليها، ولكننا لا نرى كقراء رسائلها اليه أي أننا نقرأ الأمر من جهة واحدة، والرسائل في الحقيقة ليست مخصصة لبث الأشواق فحسب بل في التعريف ببعض أحواله في لندن وتطور دراسته، وهي اذن تفيد هنا في كسر صوت السارد لتحل محله الرسائل، وفي ذلك نوع من التغيير المحبب والمشوق لمتابعة القراءة.

يقول في رسالة بعثها يوم 28 آذار (مارس) 1957 «الحبيبة العزيزة سهام : قبلات مغلفة بنار الحب المشتعل الذي يجري في الدم ويملأ القلب، ويسيطر على الفكر، هذه كلها أطبعها عجلة حانية مداعبة على عينيك ووجنتيك، وكل قسمات وجهك الحبيب لتمسح آثارالدمع الذي سببته لك رسالتاي....لقد كنت أشعر أيتها الحبيبة خلال هذه المدة المشؤومة المنصرمة أن الحياة الجميلة العزيزة التي كنت أحيا بها ولها قد انسابت من بين أصابعي انسياب الماء فلا أكاد أصدق وأضغط على هذا الرأس المرهق لأفكر فلا أجد الا رأسا تعبا كأن فيه خلايا من النحل قد تركت فيه لسعاتها لا عسلها..» ص 100.

وينتبه السمرة من جهة أخرى الى غنى تجربته اللندنية في تزويده بالمعارف والثقافة فهنالك دور السينما والمسارح والمكتبات والمتاحف والحدائق، وهناك الدراسة الأكاديمية الرزينة التي نذر نفسه للتفوق فيها، كما استطاع أن يكسب رضا مشرفه سارجانت المعروف بصرامته، وفاز أيضا بجائزة جامعية رفيعة هي «روفن»، ولكن أطروحته القيمة ما تزال لم تنشر الى اليوم كما يقول.

جاءت فرصة جديدة في الكويت للسمرة في نهاية الخمسينات لتأسيس مجلة «العربي» وللعمل نائبا لرئيس التحرير د. أحمد زكي وقد استمرت هذه التجربة القيمة حتى عام 1964 حينما رغب في العمل أستاذا في الجامعة الأردنية حديثة التكوين حينئذ، رغم أن سنوات العربي كانت حافلة بالكتابة في زاوية «كتاب الشهر» وفي التعرف على الثقافة العربية ونشرها، ومما يذكره في هذا السياق أن رؤساء الدول الذين كانوا يزورون الكويت يحرصون على زيارة المجلة واخذ مجلدات من أعدادها كهدايا قيمة، ومن الواضح أن الرجل يكن لتلك السنوات الكثير من الذكريات الطيبة، اذ كان على وشك أن يمنح الجنسية الكويتية تكريما لجهوده، لكنه آثر العودة للأردن، ومما يورده في سياق النشر وعلاقته بالأدباء حكايته مع السياب الذي أرسل له مرة قصيدة مرفقة برسالة منه يذكر أنه يريد نشرها ويطلب ارسال مكافأتها له ليشتري بها دواء «... وقرأتها ولم أفهمها، فعرضتها على الدكتور أحمد زكي وبعد أن قرأها سألني : هل فهمتها ؟ قلت : لا، قال: اذن لمَ سننشرها ؟ ولم تنشر وأرسلنا له المكافأة وكانت المفاجأة أن الكتاب المسجل المرسل اليه وبداخله الشيك ردّ الينا دون أن يفتح، وقد كتب عليه: «المذكور قد توفي» ص 122.

الأردن بين الوزارة والجامعة

الفصل السابع والذي يليه، أي النصف الثاني من السيرة خصصه السمرة لعمله في الأردن الذي ما يزال متواصلا منذ أربعين عاما، ويصف الجامعة الأردنية الوليدة وشوارع عمان في عام 1964، وكيف كان سكنه مقابل الأرض المقام عليها اليوم المركز الثقافي الملكي كان يبدو بعيدا عن عمان..! ويصف أيضا الأسعار الزهيدة للبضائع والسيارات والعقارات حينئذ، ويرى أيضا أن الجامعة الأردنية قد انتقلت بشكل نوعي مع قدوم د. عبدالسلام المجالي رئيسا لها، ويروي كيف كان الملك المرحوم الحسين يزورها دوما ويعتبرها المركز الأهم بعد القوات المسلحة، و كيف تراجع التعليم اليوم وأصبحت هذه الجامعة تضم أربعين ألفا من الطلبة بعد أن خطط لها أن لا يزيد العدد عن 12 ألفا في أي حالة من الأحوال لضمان نوعية الطلبة بعيدا عن الجانب التجاري الطاغي اليوم، وقد تولى السمرة منصب نائب رئيس الجامعة من 1973 ـ 1989ثم رئيسا لها، ولا يتحدث كثيرا عن هذه السنوات، بل يمر الى الشخصيات العالمية التي كانت تزور الجامعة، وأعتقد أن فترة عمله في الجامعة قد ظلمت في هذه السيرة من ناحية ما فيها من غنى وأحداث وأبعاد أكاديمية وحياتية، وربما يأتي أوان الكشف عنها في جزء ثان من سيرته كما نأمل حتى يتعرف الجيل الجديد على هذه التجربة ويستفيدوا منها العبر والدروس، ولا أدري ما الذي منع الرجل من التركيز أو التفصيل ولو قليلا على حياته الأكاديمية في الأردنية و جامعة البتراء الخاصة فيما بعد، وذهابه الى تطوافه السياحي أو السياسي أو الخاص في بعض دول العالم مشرقا ومغربا وشذرات من ذكرياته هناك وما رأى من الطرائف أو الغرائب، ومن هذه الدول العراق وزيارته للطائفة اليزيدية قرب الموصل،واليمن وقصر بلقيس، وبلد المليون شهيد ومقابلته لهواري بومدين، وتونس والمغرب، وباريس وألمانيا الشرقية والغربية، قبل تحطيم الجدار، والنمسا ومدريد وأميركا، كما يخصص فصلا من سيرته لرحلات دول الشرق الأقصى وما رآه فيها، وهذه الرحلات تبدو متفرقة عبر مسيرته الممتدة، وفيها من التوثيق الكثير والمفيد للقارىء عن النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية، أما الفصل العاشر فكان مخصصا لتجربته في وزارة الثقافة اذ عين في حكومة الشريف زيد بن شاكر وزيرا للثقافة في نهاية عام 1991، ويخلص في هذه التجربة الى القول «وتبقى وزارة الثقافة عند المسؤولين نافلة يمكن الاستغناء عنها دون أن يخسر الوطن شيئا وما أبعد هذا عن الدور الحضاري للثقافة الذي به يقاس تقدم الأمم» ص 190.

حصاد الرحلة والحكمة المقطّرة

في الجزء الأخير من الكتاب هناك خلاصة شديدة الايجاز والتكثيف لما وصل اليه الرجل في خبراته الحياتية، وهو يصف أيضا مشروعه الكتابي بقوله «ان اهتماماتي في الكتابة تتوزع بين النقد الأدبي وعلاقة أمتنا بالغرب والقضية الفلسطينية والرواية، ومما كتبته «النقد الأدبي والابداع في الشعر» و«القاضي الجرجاني: الأديب والناقد» ومما ترجمته في النقد الأدبي «القصة السيكولوجية» لمؤلفه ليون ايدل، وكتاب روائع التراجيديا في أدب الغرب»، و«هنري جيمس» وارنست همنغواي»، وشغلتني القضية الفلسطينية فنشرت فيها المقالات الكثيرة في مجلة العربي ولي فيها كتاب» فلسطين: الفكر والكلمة»، وكتاب «فلسطين: أرضا وشعبا وقضية»، وأنا أؤمن أن المثقف لا يجوز ان يقف صامتا من القضايا المصيرية التي تهدد الوطن والأمة» ص 198. وهناك أشياء كثيرة تؤلم الرجل اليوم مثل الفهم البدائي للتراث والمعاصرة، والهوة التكنولوجية والحضارية بين العرب والعالم، والتطرف الضار والتزمت المغلق، وعدم وجود الاستراتيجية في العمل العربي المشترك وغيرها، أما ما انتهى اليه من الأفكار فمنها: «علمتني الحياة أنها تفتح ذراعيها للانسان النشيط الجاد، وأن من جد وجد ولو بعد حين، وأن الانسان حامل القيم محبوب ويقدره حتى من خلوا من القيم لأنه يجسد لهم ما يحترمون...، وأن من يظهرون لك الحب ليسوا بالضرورة أقربهم اليك، وأن من يخالفونك الرأي ليسوا بالضرورة أبعدهم عنك، ...وأن من خير فضيلة هي التواضع، تواضع العارف وامتلاء القلب بالمحبة فلا يترك المرء للحسد والضغينة والحقد مكانا في نفسه لأن هذه تمرض النفس وتشقي الانسان...» ص 200.

بقي الجزء الأخير من الكتاب الذي ضم مقتطفات من مجموعة من الشهادات التي قيلت في حق الرجل في تكريم مؤسسة شومان له 2001، ورابطة الكتاب الأردنيين 2003، ومن الذين كتبوا شيئا في السمرة انسانا وأكاديميا وباحثا وناقدا: احسان عباس، خالد الكركي، فوز السهيل، صلاح جرار، زياد الزعبي، فهمي جدعان، ابراهيم السعافين، سمير قطامي، فريال العلي، اضافة الى قصيدة لحيدر محمود وبعض هؤلاء من أصدقائه أو من طلبته. كما ضم الكتاب كشفا بما صدر للرجل من كتب، وهي تزيد عن الخمسة وعشرين كتابا ما بين التأليف والتحقيق والترجمة.

هنا أختتم ببعض ما قاله د. احسان عباس في زميله وصديقه د.السمرة :

«... عرفته انسانا دقيقا، محافظا على مواعيده، منظما في كل شيء، ويقدر النظام في الآخرين، كما عرفته ميالا للأناقة، وشيء من الترف، وهما صفتان تستدعيهما المناصب التي احتلها بجدارة، ومرات يخيل الي أن أبا الرائد نشأ على مبادىء غاندي،وأرجو أن لا يفهم من ذلك أنه يلجأ الى العنف السلبي، نعم هو بعيد عن الحدة والمشاغبة، ولكن بحر الطنطورة الهادىء نفسه قد يثور أحيانا ويغضب. انه امرؤ يركب سفينة العقلانية في أكثر حالاته».

نوبل و«فوبيا» الحرب الباردة!

خيري منصور *

■ بعد ساعات قليلة من فوزه بجائزة نوبل قال أورهان باموك في حوار سريع أجرته معه مجلة النيوزويك ان بداياته كانت مقترنة بسؤال وطني بقدر ما هو شخصي وهو من يهتم بتركيا الآن، وقد استعار من وليام فولكنر عبارة ذات مغزى تاريخي أكثر مما هو جغرافي هي ما أسماه الطابع البريدي لمسقط الرأس، فتركيا المتبقية بعد أفول الامبراطورية العثمانية هي مجرد اقليم، لكن هذا الحنين الى امبراطورية غاربة لم يحمها من نقد أحد الأبناء الذي يوصف الآن بالعقوق لأنه فتح صفحة ممنوعة في أرشيف تاريخي مسكوت عنه هي صفحة المذابح الأرمنية.

ان صاحب روايات «الثلج» و«اسمي أحمر» و«اسطنبول» كان يدرك قبل فوزه بالجائزة أن هناك اهتماما غربيا بأعماله وبالسؤال الأخلاقي الذي حوله إلى هاجس أدبي، لكنه بالتأكيد لم يكن على موعد مع نوبل، لأنه أنهى حواره مع النيوزويك بطريقة لا تختلف عن تلك التي علق بها فولكنر عندما أبلغ بفوزه بالجائزة والمسألة أبعد من ثنائية الاستحقاق وعدمه بالنسبة لمئات وربما الآلاف من كتاب العالم المعاصر، لأن الجوائز غالبا ما يكون عدد مستحقيها أضعاف عدد الذين يظفرون بها، فالأمر لا يخلو من ترميز رغم اصرار الجهة المانحة على تحديد الحيثيات التي جعلت كاتبا بعينه قد استحق الجائزة!

ان ما أثاره فوز أورهان باموك بجائزة نوبل للآداب يصعب حصره في بعد واحد، رغم أن العاصفة التي هبت ضده في بلاده عمت وطغت على كل شيء آخر، فقد اعتبره البعض خائنا لمؤسس تركيا الحديثة أتاتورك، واعتبره آخرون ابنا عاقا لتركيا لأنه أدانها بقوة، وقد يكون اضاف سببا آخر للحيلولة دون قبولها في النادي الأوروبي الذي سال لعابها منذ سنوات عليه.

ومن الصعب على أي راصد ثقافي أن يجزم الآن والصلصال ما يزال ساخنا بأن فوز باموك بالجائزة، ذو بعد سياسي فقراءة أعماله تتطلب وقتا، كما ان مقاربة هذه الأعمال بمؤلفات تركية أخرى تتطلب وقتا أكبر.

لكن ما يمكن قوله الآن، وعلى مقربة من الحدث، هو أن فوزه بنوبل اثار ما يمكن تسميته فوبيا نوبل في الحرب الباردة.

فنحن نذكر العواصف التي أثيرت عندما فاز باسترناك ومن بعده سولجنستين وبرودسكي بهذه الجائزة، في تلك الأيام كانت الحرب الباردة في ذروتها وكان الغارب الرأسمالي يبحث بقوة عن أصوات مضادة من داخل أحشاء الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية، وربما كانت تلك السجالات حول اختراق نوبل سياسيا وايديولوجيا هي ما اثار شكوكا لدى البعض بنزاهة الجائزة وتجردها الموضوعي عن أية التباسات أخرى.

والسؤال الذي يقفز الى الذهن ونحن بصدد نوبل وأصدائها لماذا يتحول هذا الظفر الى عيد وطني، بينما تغضب شعوب أخرى وتمارس النقيض من ذلك؟

فالمسألة تبدو أشد تعقيدا من الاختزال الاعلامي وتدليك النرجسيات القومية، فالشعوب التي تفرح كثيرا بفوز أحد ابنائها بالجائزة تنسب هذا النجاح اليها، وتحول الفائز بها الى مجرد اسم حركي لشعب أو أمة!

وللتعمق في تفكيك هذه الظاهرة لا بد من معاينة سايكولوجية دقيقة لتكوينات ثقافية في مجمعات لم يتبلور فيها دور الفرد تماما بل هو ما يزال قطرة ماء في سياق مائي سواء كان نهرا أم غديرا أم ساقية!

ولو كان الحائز التركي على نوبل شخصا آخر غير هذا الكاتب الاشكالي لاختلف الأمر، ولكان رد الفعل في تركيا زفافا وليس مأتما وطنيا وما يغيب عن البعض هو أن الجوائز لا تمنح لشعوب أو قبائل أو أحزاب أو ألوان وأعراق، وجائزة الأسود ليست لكل السود، كما أن جائزة العربي ليست لكل العرب، وجائزة التركي ليست لكل الأتراك.

ينهي اورهان باموك روايته «ثلج» بمقطع هو أشبه بالعود على بدء، يقول: جلست ونظرت إلى الأضواء البرتقالية لآخر بيوت الأحياء المتطرفة البادية وسط الثلج والغرف المهلهلة التي يتابع فيها التليفزيون والدخان الرفيع المتماوج المنطلق من مداخن واطئة على أسقف مغطاة بالثلج وبدأت أبكي..».

ان المفارقة في هذه الخانة الروائية هي أن أحد التقارير الذي بثته احدى الفضائيات عن باموك بعد فوزه بالجائزة، تضمن مشهدا مماثلا للذي اختتم به روايته ثلج، غير أن بكاءه كان سريا هذه المرة.

لقد بدأ روايته بالجلوس وأنهاها به ايضا، وليس معنى هذا أن روايته ذات بناء أو نمو أو عمران دائري، لكنه عبر تداعيات قد تكون السيرة الذاتية متضمنة فيها يسرد وقائع ومواقف مشحونة بالغضب، لهذا قال في مقابلة نشرتها خدمة غلوبال فيو بوينت ان الغضب من شروط الابداع وأن التوتر يستفز لدى الكاتب احتياطياته الفكرية والشعورية، والمثقف التركي الذي يعترف بما يسميه متاهة الأخطاء المشتركة ينتمي الى عالم يستبد به الفقر قياسا الى الغرب، وإلى هوية تبلغ حد العصاب إذا ما استفزت، لهذا سيكون سوء التفاهم في أقصاه بين تركي مثل أورهان باموك، وأحد المحامين الذين تبدو آراؤهم مضادة له، ولفوزه بالجائزة».

كلاهما يدعي الهوية التركية ويحاول تبرئتها مما علق بها بعد زوال الامبراطورية، والاحتكام أخيرا لن يكون لجائزة أو مادة في دستور، إنه للتاريخ وللمنطق، ولمجمل الحقائق التي لم تعد رجما بالغيب بل تحولت الى احصاءات وأرقام!

لقد رأى بعض المراقبين لما حدث في تركيا غداة فوز اورهان بالجائزة انه وثيق الصلة بالطلب التركي المعلق لدخول السوق الأوروبية.

وأغفل هؤلاء أن شروط «أوربة» تركيا تتجاوز الثقافة والفن الروائي الى الجغرافيا والايديولوجيا وسائر الخصائص التي ترى أوروبا أنها لا تؤهل تركيا للدخول الى ناديها.

نذكر مثلا أن دخول تركيا الى حلف الاطلنطي جاء عام 1951 بموجب مادة استثنائية من دستور الحلف، ولأسباب تتعلق بالحرب الباردة والحاجة الى قواعد وتأمينات ضد الاتحاد السوفييتي، وما يحدث بعد أكثر من نصف قرن لا يمكن له أن يقرأ بالمنظار ذاته فالعالم تغير وأصبحت أوروبا تخشى من التورط بجيران في الشرق الأوسط يقضون مضاجعها، كما أن البعد الاسلامي لتركيا سيحدث خللا في كيمياء التجانس الايديولوجي، وإذا كانت الولايات المتحدة متحمسة لادخال تركيا في هذا النادي ولو من ثقب إبرة فإن ما وراء الأكمة أهم من كل التصريحات المعلنة لأن عشق أمريكا لتركيا ليس بسبب كثرة المآذن في اسطنبول أو طول ضفائر النساء أو جودة الكستناء التركية، وذلك شجن آخر ليس هذا سياقه!

اشترط باموك في احدى المقابلات التي أجريت معه بعد الفوز بالجائزة على تركيا أن تتغير جذريا خلال العقدين القادمين كي تصبح جديرة بالقبول في النادي الأوروبي، ومعنى ذلك هو أن لا تعود تركيا تركيا، فالتغير الجذري ليس معناه تغيير جلد الثعبان الموسمي، بل التغيير البنيوي الذي يطال أدق مكونات النسيج، ولعل هذا الفهم لدى باموك، هو ما سيوضح لنا قوله في مناسبة أخرى – بعد الفوز – عن مصطلح العولمة، والصيغة التي يتبناها عنها، فهو من حيث المبدأ يرحب بها، لكنه يطالب بهامش لمن يقدمون اطروحات مضادة لها، وهذا بحد ذاته موقف غائم من قضية استغرق السجال حولها العقد الماضي كله، خصوصا بعد أن فهمها البعض على أنها صيغة مخففة ولأسباب إغوائية للأمركة، ان العولمة كما يراها باموك مهمة عسيرة، ويجب أن ينصرف الجهد والحوار إلى تفهم أسباب عسرها، وهنا نأتي الى واحدة من المفارقات الكبرى في صراع المفاهيم وحرب المصطلحات إذ كيف تصبح الأوربة أصعب وأشد عسرا من العولمة؟ اللهم إلا إذا كان المقصود بالعولمة صهر الهويات، وتبادل الاعتذارات عن التاريخ وانجاز المهمة المتعذرة وهي صياغة انسان كوني وبلا حدود!

ان مصدات العولمة بدأت تأتي من المبشرين بها خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) وذلك من خلال إعاقة سبلها وتصليب شرايينها لأن اقانيمها الثلاثة محاصرة، ومحجور عليها وهي تنقل الجسد والمال والمعلومة!

وهذه مفارقة ثانية.

أما أوروبا التي بدأت بإعادة النظر في قدرتها الامتصاصية والاستيعابية للمهاجرين، ووفرت مناخات وحاضنات لافراز تيارات يمينية وعرقية فقد بدأت توارب بوابات كانت مشرعة على مصاريعها تمهيدا للاغلاق وهذا ما يفسر الخطاب الاقصائي الذي يعود الى ما قبل الثورة الفرنسية، والذي يهيئ العالم للبحث عن اطلال أسواره القديمة، بحيث تتغذى الهويات بالهارمون العرقي الذي يمهد لحروبها ولصراع الثقافات بدلا من تلاقحها أو حوارها! وتلك مفارقة ثالثة!

قدم باموك لاحدى رواياته بعبارة لستردهال يقول فيها «ان السياسة في عمل أدبي أمر فظ مثل مسدس ينطلق وسط حفلة موسيقية ولكنها أمر لا يمكن لنا أن نتجاهله والآن سنأتي الى أشياء بشعة جدا..».

وهذا ليس تقديما مجانيا، أو مجرد قلادة في عنق رواية، فالكاتب يدرك أن رواياته بها متسع للسياسة، لكن ليس الى الحد الذي يفسد فيه المسدس الموسيقى، فالموسيقى أحيانا رصاص من طراز آخر، إذا كانت مكرسة لنشيد امبراطوري، أو مارش عسكري لاسبارطة جديدة، وقد لا تكون السياسة مرئية بوضوح في عمل روائي رهانه إبداعي، انها مبثوثة كالرائحة والكلمات الملغومة بها ذات فحيح، ولكي نحدد مساحة السياسة في نص روائي علينا أن نعيد تعريف السياسة، خارج هذا المدار الذي اختزلت فيه إلى حرفة تراوح بين البراغماتية العارية والدسائس، وحسب التعريف المقترح وغير الكلاسيكي للسياسة فإنه ما من عمل ابداعي يخلو منها، ما دام هناك واقع يتموج تحت الأصابع، لا أثناء الكتابة فقط بل عبر كل تفاصيل الحياة اليومية، فما من كاتب منزوع الطبقة، أو بلا رؤية أو حلم لنمط من الحياة، لكن المسدس السياسي الذي تحدث عنه باموك مستعيرا العبارة من سواه، لم ينطلق بكل مخزونه من الرصاص إلا بعد فوز الكاتب بنوبل. ما جرى من حوار كان تبادلا لرشقات من الرصاص وبلغ الافتراق بين من يرى التاريخ على هواه ومن خلال نشيد وطني أو مارش عسكري وبين من يراه كما هو وعلى حقيقة ذروته.

ان أسئلة نوبل القديمة تعود الآن الى الحياة وباللغة التركية أولا، وكأن الاعتراف التطهيري بما لحق بالأرمن كما يرويه باموك هو ايقاظ لفوبيا هاجعة، فالحروب الباردة أنواع وقد تكون أهلية بمقياس ثقافي.

والمثال الأكثر طزاجة لتجسيد حق المبدع في العزف المنفرد خارج الأوركسترا يقدمه باموك الآن، ولا ندري كم يستقطع سهمه حول الدائرة!!!

* شاعر وكاتب من الاردن

ثلاث قصائد

أحمد شافعي*

الكلمة

كنت أوشك أن أدخل القصيدةَ
بعدما الماءُ
والوردةُ التي شمها شاعرٌ في المنام صغيرا
والعناصرُ
كلُّ العناصرِ
ذابت معا
ثم سالت من أصابعه حليبا أسود فوق
بياض الورقةِ
سرعان ما توقف.
وراح يبحث عني.
ورحت أراوغه.
ثم اعتدلت قامتُه المنحنيةُ.
مزّق القصيدة.
مزق البيت والوجود.
مزق الجسد الذي كنت أوشك أن أكون
خلية فيه.
مزقه.
أنقذني.

الكلمات

كان يمكن أن نجتنب الفناءَ
إذا ما اجتنبنا الوجود

نحن كلام القصائد الذي
شدَّ من خلوده
في العدم.

نحن الكلام الذي سيق مثل القيان
إلى المعجم
ذلك الشيخ العنين

لم يبق بيننا آمنا وخفيا
غير كلمةٍ
تقول وجودنا كله دفعةً واحدة

كلمة تعني
يولد
ويموت
معا
ذلك الحدث الواحد في حياتنا
والذي مع ذلك
ومع أنه يحدث على أيديهم
إلا أنهم لا يفطنون إليه
الشعراء ...
كم أهلكوا من الشعر

المعجم

تقف «السفينة» في المنتصف
و«الماء» قرب النهايةِ
وفي الصفحة الأخيرةَ
توجد «اليم».

في باب «أنا».
في بابٍ آخر
«الحياة».

تارة «كلمة»
تارة «لفظ».

«أحمد».
«فيفيان».
كلٌّ في معجم.
«هو»
«هي»
أكثر قربا في الغياب.

ما أكثر الأشلاء في المعجم
كتاب يضع أمام الكلمة معناها
يفرغها منه.

لا بد أنه حاول.
لكن كان من الصعب ألا يحتوي
كلمة «معجم».

* شاعر ومترجم من مصر